الفلسفة الدينيّة ضدّ فلسفة الدين

شفيق جرادي
مفكر إسلامي - رئيس معهد المعارف الحكميّة للدّراسات الدينيّة والفلسفيّة – لبنان

تقديم:

في هذه المحاضرة التي تجيء تحت عنوان إشكالي: «الفلسفة الدينية ضد فلسفة الدين» يسعى المفكر الإسلامي الشيخ شفيق جرادي إلى التنظير لمنفسح معرفي مفارق في ميدان فلسفة الدين. ما يجوز استخلاصه مما تذهب إليه المحاضرة، هو تأصيل حقل فلسفي ينظر إلى الدين والإيمان الديني ببعديه الغيبي والتاريخي. ومن اللّافت ان عنوان المحاضرة يستظهر خلاصة الفكرة المحورية لهذا المشروع التنظيري. ولعل الإعراب الصريح عن مقصد المشروع المشار إليه بـ «ضدّية» الفلسفة الدينية لفلسفة الدين، إنما يشير إلى معضلة باتت راسخة في البيئة الفكرية والأكاديمية ومفادها الغفلة عن ضرورة التمييز بين منهجين فلسفيين متعاكسين حيال الدين. القضية هنا لا تتوقف فقط عند تعريف مصطلح ومفهوم فلسفة الدين كما وضعته حداثة الغرب، وإنما في ما يؤول إليه المنهج الحداثوي من نتائج وترتيبات لا تنظر إلى الإيمان الديني إلا بوصفه ظاهرة محدَّدة بأحكام الزمان والمكان مثل سائر الظواهر في تاريخ الإنسان.

نشير إلى أن النص التالي الذي خُصِّص لـ «علم المبدأ» هو محاضرة أُلقيت في معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية في بيروت، بتاريخ13 آب(أغسطس) 2024.

* * *

تمهيد

كان من المفترض، بداية، أن يتمَّ التطرُّق إلى تحديد معنى الفلسفة والدين، لكن مِلتُ عن هذا الأمر لأسباب كثيرة، منها أنَّنا حين نتحدَّث عن فلسفة الدين أو الفلسفة الدينيَّة سنكون أمام حشدٍ هائل من التحديدات المختلفة، حيث عملت كلُّ مدرسة على إنتاج تحديد يتبع لها، وهذا الأمر لا يستقيم هنا بالتأكيد.

من هذا المنطلق، سأتّجه مباشرة نحو مبدأ الضدّيَّة، وهو محور الحديث، لمعالجة اتّجاهين: الأول هو فلسفة الدين، والثاني هو الفلسفة الدينيَّة.

أوَّلًا: في فلسفة الدين والفلسفة الدينيَّة

1. فلسفة الدين: نلفت هنا إلى أنَّ فلسفة الدين ليست جزءًا من التعاليم الدينيَّة، كما أنَّها في معالجتها لا تنطلق من الاعتقاد الديني. فالملحد والمشكِّك والمؤمن جميعهم يستطيعون التفلسف حول الدين. وعليه، فهي ليست فرعًا من فروع اللَّاهوت، ونقصد باللَّاهوت الصياغة المنهجيَّة للاعتقادات الدينيَّة، إنَّما هي فرعٌ من فروع الفلسفة، تدرس المفاهيم والمنظومات الاعتقاديَّة الدينيَّة، كما تدرس ظواهر التجربة الدينيَّة على المستوى العقليّ.

وإذا أردنا أن نقرِّب الفكرة، وأخذنا موضوع الأدلَّة المقدَّمة حول وجود الله، نلاحظ أنَّ فلسفة الدين لا تهتمُّ بالقول أنَّ الله موجود أو غير موجود، إنَّما تعمل انطلاقًا من الوظيفة المناطة بها، وهي تتعلَّق بفحص الأدلَّة التي قدَّمت وتقييمها فلسفيًّا، انطلاقًا من مجموعة أسئلة منها: هل هذه الأدلَّة تصلح؟ هل لها وزن؟ أي أنَّها تقوم بالتدقيق بما قُدِّم وبطريقة السؤال ومن دون مرجعيَّة خارج حدود العقل؟. كما تدرس ظواهر التجربة الدينيَّة، وأرى أنّه يجب أن نضع عشرين سطرًا تحت كلمة الظواهر، فأغلب ما قامت به هي دراسة الوقائع الدينيَّة وأعمال العبادة والتأمُّل ومن وجهة نظر خاصة. نصل إلى القول أنَّ فلسفة الدين تنفصل عن مسائل وموضوعات الدين، ولا تشكِّل جزءًا من المنظومة الدينيَّة رغم ارتباطها بها.

وهنا يُطرح سؤالٌ عن نوعيَّة هذا الارتباط بالدين؟

في هذا السياق، اعتبر الباحثون أنَّنا مرَّة نبحث الموضوع في المسائل الدينيَّة من داخل الدين، وهذا ما أُطلقوا عليه معرفة من الدرجة الأولى، أي من داخل المعتقد الدينيِّ، ومرَّة نبحثه من خارج الدين على أرضيَّة تنطلق من أنَّه أمرٌ غير مسلَّم به، ويجري التعامل معه كظاهرة موجودة، ولا بدَّ من إخضاعه للعقل وفهمه، وعلى هذا الأساس هو علم من الدرجة الثانية. وعليه، فإنَّ فلسفة الدين تبحث الدين، بمعنى آخر تمارس دورًا عقليًّا في دراسته عبر العمل على المنظومات الاعتقاديَّة وأدلَّتها من خلال دراستها نظريًّا وبطريقة موضوعيَّة ومحايدة، ويقرِّر من خلال ذلك ما يراه في هذا الإطار.

2. الفلسفة الدينيَّة: أي التفكير بالدين من داخله، ومن خلال مبتنيات الوجود الإلهيِّ والوحي، وهي تجعل من القضايا الاعتقاديَّة أصلاً في مشروعها. إنَّه التأمُّل الفلسفيُّ في الدين من داخل الدين.

بعدما استعرضنا حضور الفلسفة في فلسفة الدين والفلسفة الدينيَّة، نجد كلمة فلسفة مشتركة بينهما، وهذا ما يستدعي فحصها، حيث سأنتقل للحديث عنها، وهذا أمر ضروريٌّ للوصول إلى النتائج المتوخَّاة من هذه الورقة. ولمعالجة هذا الموضوع، سأنطلق من مجموعة من الأسئلة:

- هل الأصل في الفلسفة هو أن ندخل إلى المباحث الفلسفيَّة باعتبارها علمًا من العلوم؟

- هل وظيفة الفيلسوف أن ينظر في الفلسفة باعتبارها علمًا؟

- هل الفلسفة هي التي تجعل الفيلسوف فيلسوفًا؟ أم أنَّ هناك إنسانًا لديه مميّزات تجعله ينتج فلسفة؟

- هل الفلسفة هي من تصنع الفيلسوف؟ أم هو الذي يصنعها؟

...هذا فضلاً عن جملة من الأسئلة في هذا الإطار.

ثانيًا: في ماهيَّة الفلسفة

حينما عُولِجت المسألة الفلسفيَّة، اعتبر الباحثون أنَّ البذور الأولى للفلسفة والسبب الدَّاعي لها هو الدَّهشة، ورأوا أنَّ مقاربة الفيلسوف للواقع مختلفة عن الآخرين، فهو عندما ينظر إلى الواقع والوجود بعينه يرى من خلالها الأمور بطريقة يصبح فيها المألوف أمرًا غير مألوف. بمعنى آخر، عندما ينظر إلى الطبيعة والكون لا يراها بعين التكرار السكونيَّة التي لا تحرِّك شيئًا، إنَّما ينظر إليها بعين تبحث عن مصدرها عن ارتباطاتها التي تثير في الإنسان الدَّهشة.

فالدَّهشة هي التي تحرِّك العقل انطلاقًا من مجموعة من الأسئلة، ما القصَّة؟ لمَ هي هكذا؟ ما الأمر فيها؟ ما هي؟ ما المُراد منها؟ إلى أين تتَّجه؟

كلُّ هذه الأسئلة التي يمكن أن تتوافق مع الدَّهشة، وهي التي أنتجت جملة من المعارف التي صُنِّفت في ما بعد لتكون بالترتيب التاريخيِّ والمسار التاريخيِّ الفلسفة. هذا الكلام يعني أنَّه من خلالها صار للفلسفة بنيتها وصيغتها وعمدتها الخاصَّة، وتمَّ تبنّي مقولاتها باعتبارها فلسفة وسُمِّيت

مرَّة بالميتافيزيقا وأخرى بالفلسفة الأولى.

وهنا، يُطرح سؤال: هل تقتصر الدَّهشة على الشخص الذي ينظر إلى الواقع فقط، أو بإمكان الفيلسوف أن يشارك الآخرين بها، حيث يمكنهم أن يندهشوا في الأجوبة التي أطلقها وفي الأسئلة التي حرَّضهم على الإجابة عنها في أفقه الفلسفيِّ وفي أفقه المعرفيِّ؟

بمعنى آخر، هل يستطيع أفلاطون أن ينتج أرسطو من خلال مشاركته بالهموم في أفقه الفلسفيِّ؟ أم أنَّ الدهشة شأنٌ فرديٌّ، تتحفَّز من خلاله النفس السائلة التي تسعى لمعرفة أسرار الأمور؟ من هنا، من هذه الروح التوَّاقة للمعرفة والنظر إلى المألوف بنظرة غير مألوفة التي تريد أن تقتبس الحقائق، وأن تبعد الحقيقة عن أيِّ وهم، يمكن أن يكون متصوَّرًا كيف تنشأ الفلسفة؟ أم أنَّ هناك علاقة تنشأ بين الطرْحين، حيث يتشارك الفيلسوف الدَّهشة مع أصحاب النفس المتحفِّزة والتي تمتلك الروح نفسها ونفس الرؤية نفسها؟

إذا ذهبنا إلى تطبيق عمليٍّ، وأخذنا مفهوم الوحي، وأردنا أن نتعامل معه انطلاقًا ممَّا تحدَّثنا عنه سابقًا، سنجد أنفسنا نتعامل معه مرَّة باعتباره مسلَّمةً، ومرَّة أخرى باعتباره واقعًا يثير الدَّهشة. أي أنَّ هذا الوحي مُعطى وهو حقيقة من الحقائق أثارها، وأريد أن أتعرَّف إليه وأثبته عميقًا، هل يتحوَّل الوحي إلى فلسفة؟ وبمثل هذا الحال هل يتحوَّل الأمر الاعتقاديُّ أو الأمر الدينيُّ إلى موضوع فلسفيّ؟ وهنا الفلسفة لا تجعل من مسلَّماتها الأمور الدينيَّة بل الأمور الدينيَّة تتحوَّل عند الفيلسوف إلى أمر يجب أن يقاربه بنظرة الناقد العقليِّ الفاحص المستدلِّ، فإذا برهن عليه تحوَّل إلى بُعد دينيٍّ الآن للمدهوشين كلِّهم يندهشون سواء كانت القصة من خلال الدين أم من غيره.

وأسمح لنفسي بعد الذي أوردته، أن أُقدِّم أمرًا مستفزًّا، فأغلب الذين يقدِّمون لنا فلسفات يصيغونها بطريقة تعليميَّة أكثر ممَّا هي صياغة تثير الدَّهشة وحسَّ السؤال والنقد فينا - للأسف - حيث نجد أنفسنا أمام منهج تعليميٍّ سواء من خلال طريقة الطرح التقليديَّة أم من خلال المعالجة التي تأتي جامدة ولا تحرِّك العقل الفلسفيَّ أو النقديَّ. ومع ذلك صاروا يطلقون على هؤلاء أحيانًا كثيرة اسم "فيلسوف"، بينما هم في أفضل الأحوال متَّهمًا بها وصاحب مهنة. بالتالي، ما يُقدَّم لا يُحرِّك في الإنسان الروح الفلسفيَّة، نصل إلى القول أنَّ المعالجة والطرح هي التي تُحدِّد الفلسفة ومنها الفلسفة الدينيَّة.

ثالثًا: في الفلسفة الدينيَّة

في الفلسفة الدينيَّة، يجب أن يكون البرهان حاضرًا، وكذلك الأدلَّة التي تقدَّم، بالإضافة إلى الُّلغة. فلهذه الفلسفة خصوصيَّتها التي تجعلها مختلفة عن غيرها، فهي تختلف شيء اسمه علم كلام. ونلاحظ ذلك على مستوى الُّلغة، حيث انشغل الثاني بإثبات الحقيقة بينما الأول يسلب الأمور أكثر ممَّا يثبتها. فأصل المشروع الكلاميِّ هو الردُّ على الردِّ وإفحام الخصم، لأنَّه يريد تبيان الأمر وإحقاقه كما هو.

لا بدَّ من القول أنَّ الفلسفة الدينيَّة تفترق عن فلسفة الدين التي شقَّت طريقًا طويلاً جدًّا، واستطاعت أن ترسي فرعًا فلسفيًّا، واتفقت على جملة من الأمور، منها أنَّها:

- أبعدت كلَّ ما ليس له ارتباط بسيادة غير الإنسان، فهم رفضوا كلَّ سلطة فوق عقل هذا الإنسان فوق حضور هذا الإنسان.

- افترضت نفسها غير مقيّدة بسلطة الله المعرفيَّة وبعض المسائل الناتجة منها مثل الهداية، وحينما أبحثها، أتعاطى معها على أساس أنَّها غير موجودة في حقل عملي واشتغالي.

- تبحث في الدين ليس لأنَّه ظاهرة في حقيقته، موجود كواقع يتمُّ التعامل معه انطلاقًا من حيثيَّاته الداخليَّة، وإنَّما تبحثه مع المسائل المتعلِّقة كالأمور الاعتقاديَّة لفحصها وإظهار انعكاساتها بسلوك الجماعة أو بسلوك الفرد. بناء عليه، فليُسمح لنا أن نقول إنَّ ما أطلق عليه اسم فلسفة الدين تتعامل مع ظواهر الأشياء وما تخفيه من حقائق يعني التاريخ باعتباره هو الذي يفصح عمَّا تخبّئه الوقائع مستعينة بعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا وعلم النفس والُّلغة والثقافة. وهم استطاعوا تغيير معنى هذه العلوم بشكل جديٍّ، وحينما يتحدَّثون مثلاً عن علم النفس يقيّدون هذه الدراسة بعلم النفس المتعلِّق بالظاهرة الدينيَّة، بمعنى آخر، لا يأخذونه على إطلاقه، وإلَّا فهو مختلف عمَّا يدرس في الاختصاص الذي يحمل هذا العلم. الأمر نفسه ينطبق على علم اجتماع الدين، حيث نلاحظ أنَّه قد رُتّبت فيه جملة من المناهج. وعلى هذه الشاكلة، قدَّموا ما قدَّموا، وهي قابلة للنقاش.

طبعًا ما قُدِّم في فلسفة الدين، يوفِّر إمكانيَّة دراسة الظاهرة دينيَّة، التي ترتبط بالتديُّن لا بالدين؛ إلَّا أن نقول - وأظنُّهم اعتبروا ذلك - بما أنَّه لا يوجد حقيقة واضحة خارج التزاماتنا كبشر لا بدَّ من الدمج بينهما، فهم اعتبروا الإنسان هو الأصل، ولا يوجد شيء خارجه، ومن خلال هذا الفهم،

صارت مسألة الدمج بين التديُّن والدين على طريقة الحركة والمتحرِّك، وقالوا إنَّ الحركة هي عين المتحرِّك، فالإنسان المتديّن الذي يصير عنده هذا الحال من النزوع تتولَّد منه فكرة الدين. فالكلام عن الدين ليس خارجًا عن إطار التديُّن، إذن ليس خارج إطار الظاهرة. ورغم أنَّ هذا الكلام يخالف الاعتقاد الدينيَّ، إلَّا أنَّ أغلب الذين تحرَّكوا في إطار فلسفة الدين جاءوا من مناخات لاهوتيَّة واشتغلوا فيها، وإن طوت مجموعة من الحركات الإلحاديَّة في ذاك العالم، واستوعبت كذلك التجربة المسألة التأويليَّة التي كان فيها غادامير وفلسفة التأويل التي عملت على إعادة دراسة فلسفة الدين على ضوء علم التأويل، وأنصح في هذا المورد، لمن يريد الإطِّلاع على الجانب التاريخيِّ، بقراءة كتاب "العوسج الملتهب" لجون جريش.

بعدما عرضنا الفروقات وإظهار خصوصيَّة الفلسفة الدينيَّة، نسأل: من يستفيد منها، وهل توقَّفت اليوم؟

ذهب الكثير من الباحثين إلى أنَّ هذه الفلسفة توقَّفت عند إبن رشد، ولكن هذا الموقف واجه اعتراضًا في إيران، حيث قالوا إنَّ هذا الكلام غير دقيق، فقد بقيت فاعلة ونشيطة هناك، ووصلت إلى ذروتها مع صدر الدين الشيرازيِّ، وهذا الأمر صحيح، لكنَّه لا يعفينا من طرح سؤال: هل استمرَّت الفلسفة فاعلة بعد ذلك، أم توقَّفت عند ملَّا صدرا؟ هناك وجهة نظر تقول بأنَّ هذه المدرسة تحوَّلت إلى التعليميَّة وانتهت الفلسفة الإسلاميَّة عندها وتصنَّمت. هذا في إيران، أمَّا في العالم العربيِّ، فالفلسفة تتراجع عمومًا، وهي لا تتعدَّى كونها مادَّة في المعاهد والجامعات.

للإجابة عن السؤال السابق، وللإنصاف نقول إنَّ الجانب التعليميَّ للفلسفة في إيران هو في تطوُّر عجيب، ويشهد تقدُّمًا واسعًا في الجامعات والمعاهد الدينيَّة، لذا نرى ضرورة العمل البحثيِّ في الفلسفة الإسلاميَّة، ولو بمثالها الأعلى الصدرائيّ، ولكن خارج إطار التقنين التعليميِّ. بمعنى آخر، علينا أن نبحث عن روح اشتغال الفيلسوف فيها، وكيف نشاركه الأفق في السؤال والإنتاج، وكيف انتظمت المسائل في داخلها لنستطيع أن نعايش اللَّحظة التي نحن فيها، ولا أقصد اللَّحظة الزمنيَّة بل اللَّحظة الثقافيَّة في المنهجيَّات، وفي العلوم، وفي الطرق المعالجة. لذا، علينا أن نطرح السؤال التالي: كيف يمكن لنا أن نتفاعل معها بحيث نؤسِّس الاستكمال لهذا الأفق الفلسفيِّ ولهذه الروح الفلسفيَّة التي ينبغي أن تبقى حاضرة؟ وهل لهذا الأمر إرهاصاته؟

للإجابة عن هذا السؤال، دعوني أقول إنَّ الفلسفة بطريقتها التعليميَّة أسَّست لنا أمرين مهمَّين جدًّا، هما:

1 - القواعد والأركان.

2 - بنية المقولات الثلاث: الهوّيَّة والمنطقيَّة والفلسفيَّة.

كما أنَّ هذه الطريقة أسَّست لنا المقولات التي يمكن أن ندخل فيها إلى الفلسفة وأن نتفكَّر فلسفيًا، وإذا كان ذلك ممكنًا، هل من الممكن أخذ الوحي كمادة للتفكُّر الفلسفيِّ؟ انطلاقًا من هذا الأمر، نطرح أسئلة على شاكلة: هل توقَّفت موضوعة الوحي وموضوعة العقل وموضوعة الوجود الإلهيِّ عند الوجود، بمعنى السبب الأول والمثل والعقول المفارقة وغير المفارقة؟ وهل كان حديث الوحي لنا عن أنَّ هناك عالمًا آخر يعني المصير أم أنَّه دخل إلى جملة مسائل ترتبط بالحياة والإنسان؟ وهل الدَّهشة تقتصر على مسائل الوجود فقط أم أنَّ كلَّ ما له علاقة بكلمة آية في الآفاق تستحقُّ منا الدهشة، وبالتالي تستحقُّ السؤال المؤسِّس لإيجاد منظومة من المفاهيم القائمة على فلسفة دينيَّة؟

بتقديري، ثمَّة إرهاصات نجدها في مباحث الفلاسفة الكبار، حيث عالجوا موضوعات تتعلَّق بالتاريخ والاجتماع والإنسان والصراع، وكثير من الموارد الأخر كالعبادة والمرأة والأسرة. نأخذ مثالاً على ذلك نموذج الشهيد مرتضى المطهَّري، أو ما يضجُّ به كتاب "تفسير الميزان"، حيث يمكن أن نجد جملة من المسائل التي قد هيَّأت الأرضية لمثل هذا الأمر. واليوم هناك طرح جديد بدأ في إيران أدعو الله أن يوفَّق بالاستمرار، وأن يؤسِّس لمرحلة جديدة، وهو لتلميذ الشيخ عبد الله جوادي آملي الشيخ يد الله يزدن بناه، الذي عمل من خلال تدريسه للبحث الخارج بمادَّة الفلسفة على إنتاج ما سمَّاه فلسفة الفلسفة، التي تسعى لبذل جهد من أجل إنتاج علم جديد، والذي يلفت فيه إلى أنَّه يفرِّق بين فلسفة تأخذ الطابع العام لكلِّ المسائل، ويعتبر أنَّ عمدتها ما هو متعارف عليه من مداخل فلسفيَّة، لكنَّه يرى أنَّه من الممكن أن ندخل من الفلسفة إلى دراسة نظم الحياة، وهو اتِّجاهٌ جديدٌ يفترق عمَّا هو سائد في العالم الإسلاميِّ من عمليَّة إعادة نظر في الفلسفة عبر الحديث عن أنَّ الفلسفة الإسلاميَّة موجودة في أصول الفقه، وهذا المشروع موجود بشكل واضح عند مصطفى عبد الرازق. كما أنَّ مشروع يزدن بناه يفترق عمَّا قدَّمه إتيان جيلسون في كتابه "روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط"، حيث نلاحظ أنَّ هذا الأخير كان يعيش هاجس إثبات وجود

علوم المبدأ
ILMOLMABDAA
العدد العاشر - 1445هـ - صيف 2024م

فلسفة مسيحيَّة، الأمر الذي دفعه إلى إثبات هذا الأمر عبر سرد تاريخيٍّ، لكن لم يقدِّم لنا قراءة في المقولات والأسُس الفلسفيَّة للفلسفة المسيحيَّة، فجاء عمله أقرب ما يكون إلى التحليل والتركيب. هذا ما يجعل مشروع يزدن بناه جديدًا، إذ هو لم يتحدَّث عن بديل للفلسفة، كما أنَّه لم يستغرق بالتأريخ لها، إنَّما سعى لإنتاج فرع جديد يمكن أن نسمّيه فلسفة دينيَّة.

في الختام، يجب البحث والعمل على فلسفة دينيَّة سواء لدين واحد، أم من خلال نظرة شاملة للأديان، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية نعمل للاستفادة من التراث الفلسفيِّ ومن ضدِّيَّة فلسفة الدين، وأدعو لأن نلحظ هذه المرة، عند حديثنا عن الفلسفة وعلاقتها بدين، أنَّ الكلام لا يمكن أن يقتصر على الله وعالم العقول والملائكة حصرًا، إنَّما علينا أن نعمل على إثارة الموضوعات وأخذها إلى ما له علاقة بالحياة والإنسان، لأنَّ هذا الأخير هو القطب والأصل في السؤال، وهو المقصد في هذه الرسالة الإلهيَّة، ونحن بذلك مدعوّون إلى أن نسلك مسلك التفلسُف قبل أن نسمّيها فلسفة.